130

فارس حرّام

مَرّةً واحدة

شعر



جائزة الشارقة للإبداع العربي

الإصدار الأول

الدورة الثامنة

2004

المجموعة الفائزة بالمركز الثاني في مجال الشعر



مَرَّةً واحدة

مرَّةً واحدة

شعر

فارس حرَّام

إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة

الطبعة الأولى 2005
حقوق النشر والطبع محفوظة
الناشر : دائرة الثقافة والإعلام

حكومة الشارقة – دولة الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 5119 الشارقة

هاتف: 5671116 6 971+

برّاق: 5662126 6 971+

بريد اليكتروني: adci@sdci.gov.ae

٨١١.٩٥٧٠٩٤	فارس حرام
ف.ح.م	مرة واحدة: شعر/فارس حرام. – الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام، ٢٠٠٥
	ص؛ ٢١ سم.- جائزة الشارقة للابداع. الشعر: ٨- الجائزة الثانية في مجال الشعر ٢٠٠٥
	١- الشعر الحر- العراق أ- العنوان
	ب- السلسلة

ISBN 9948 – 04 – 216 – 6
ISBN 9948 – 04 – 095 – 3

أقسِم أصحابي نصفَيْن وأبتسم

[بَعضهُمْ ساهِمٌ

في الطريق،

ونيّاتُ أكثَرِهِم غَبْرةٌ في الرفوف،

وأرواحُهُمْ

وَقَفاتُ.

كلَّما وجدوا أنَّهم غيرُهُم

شككوا في الحياة

وماتوا.

.. ولكنهم، دائماً، يُبْعثون،
يقالُ لهم: «عَرَبٌ مَلَّهم عَرَبٌ»: "ذَرٌّ رملٍ على الأرض
تُحْدِثُهُ أَضْغُنٌ وحُداةُ».
.. لا يزالون، جيلاً لآخرَ:
يحلمُهُمْ أهلُهُم في البيوت
وتمحوهُمُ الطرُقاتُ.

وللآنَ.. في أرضِ ما يشعرون يعيشون،
قُلْ: لم يصيروا من الكلماتِ جرائدَ،
قُلْ: كلُّ عظمٍ دَواةُ.
وقُلْ: إنَّهم، بين عصرٍ وعصرٍ يُعذَّبُ «أشباهُهم»
مثلَهم،
ثُمَّ يُخفون أعماقهَمْ عن خساراتهم
ليحبّوا من البدءِ،
من حيث ساحَ «البريدُ»
وضاق «السُعاةُ».

كلُّ غربةِ ريحٍ بكوكبهِمْ
أصلُها هُمْ،
فَهُمْ
شَخصُ بُعْدٍ يقومُ ويعثرُ:
أوطانُهم:
أهلُها عَثَراتُ].

شـارحُ ***هـذي القصـيدةِ*** ينقـلُ بـين العبـارات مـوتى وجرحى، وناشرُها يتشمَّمُ رائحةَ الحرقِ والدفنِ، منْدهشَيْنِ لكثـرةِ مـا ضـاعَ بـين القصـيدةِ والشـاعرِ – النـاسُ تُـثخنُ أعمـاقَهمْ قِلَّـةُ النـاس، لكـنَّ شـارحَ ***هـذي القصـيدةِ*** يعجـب للكلماتِ الكبيرةِ تجرفها الكلماتُ الصغيرةُ، في حين ناشرُها يتأمَّـل: كيـفَ سَـتَبْلُغُ آخِـرَ شـيءٍ مـن الليـلِ لـو قُرئـتْ في النهارِ؟؛ وفي أين ينشرها وهي عن رُحَّلٍ عَرَبٍ تتحدث؟ – عمن يُقَضِّي الحياةَ على بغلةِ الزمن. الناسُ تختِلُ بين جفونِهُمُ والليـالي عـذاباتُ أقـدامهِمْ، وأنـاسُ ***القصـيدةِ هـذي*** تحـاول أجفانُهم نفسُها أن تسيرَ، وتهرب.

لا غيرَ حفرِ خنادقَ، من كلمةٍ نحو أخرى، ولا غيرَ نَسْيِ الجنود، وأدخنةٍ، وشظايا، ونارِ مصابيح تُطفا وتُدْفَنُ.. يكشفها دائماً عَرَبٌ يجمعون حصى اللغة العربيةِ– حيث تعابيرهم مثل أطفالهم «تترادمُ»، بل إنَّ نهرَ التحدُّثِ يطفو به ورقُ الذات أصفَرَ. أجيالُ موتى وجرحى، من الألفِ للياءِ في اللغةِ العربيةِ، يبعثهم قلمي في الكتابةِ، ثم يُغار عليهِمْ، فيبعثهم، فيُغارُ عليهم، وهاكَ دواليكَ: العربيُّ على العربيّ، ومن كثرةِ الكرِّ والفرِّ صارت عظامُ الكثيرين خيلاً، وأزواجُهم ثكناتٍ، وصارت توابيتُ بعضٍ متاحفَ أعمالهم، وترى في الأَسِرَّةِ أنقاضَ أجفانِ من قُتلوا، وترى أنَّ في كلّ غُصْنٍ من العُرْب فصلَ ربيعٍ يئنُّ، كأنَّ القرونَ الجفونُ بأعينِ من رمدوا: كلُّ شيءٍ يئِنُّ من الدهر، حتى الجلابيبُ، والخطوات..

وإذ يُصبِحُ اليأسُ نهراً، ويجري،

وينمو السُدَى،

ويُربِّى إلى الآخرين التعبْ..

وإذ يُكثَرُ المستحيلُ، وتلقي العوائلُ أعمقَ أولادها حيث تكبو،

وينسى الذي توَّبَتهُ التجارب من أهله أنَّه لم يَتُبْ..

وإذ يتهرَّأ، من فرط نفي بني آدمٍ، كوكبُ الأرض،

في طُرُقٍ يتحَّطبُ فيها الزمانُ

الرجالَ الحطبْ...

– يجيء مؤرخ قتلِ التراثات، يدخل.. يخرج، من بيت عصرٍ لثانٍ

وفي اليد ثوبُ تراث العربْ..

من الدمِ أحمرَ،

والشهداء،

وأزرقَ .. من عَبَرات الكتبْ.

ومن جُمَلٍ تتململ وسْط المحابر،

عاشت على أن تُقالَ، وحارَ بها مبتلونَ،

تمنَّوا أسارى

وعاشوا أسارى،

وماتوا وأرواحهم من جرارٍ تُكَبْ.

وهمُ اليومَ داخلَ كلِّ ظلالٍ تمرُّ بها الناسُ، أبعد شيء عن السَكْن، والعتبات الجديدة، داخلَ كلّ غدٍ مغتربْ.

..جُمَلٌ تنتهي بالقناطر في كربلاءَ، وحاتم طيءٍ، وعَمْرو بن معدي، وحمزةَ، والمتنبي، وعنترةٍ، والسَمَوْأل، والريحِ في مكَّةَ، الريحِ في البصرةِ، الريحِ في الكوفة: الجالساتِ مقابل أوطانها، حول أنفسها، فوقها... في سُحُبْ.

أجيء مُلَمْلِمَ ما تركوا، بسلال الثمار الحزينة، بالأمل الواقف الجفنِ، بالوقفاتِ على ما أُحبْ.

هارباً بزماني من الناسِ، ممن إذا كان تذكارهُم فضَّةً،

فتناسِيُّهم

من ذَهَبْ.

وأنا – حين تُشرح هذي القصيدةُ – تجتازُ بي بعضُ أسطرها لمشارف قومي التي الآن: تسقط منها القرونُ، وتحتار، تحثُ، السنين التي تتهشَّم ماذا تقولُ؟..

أَمِنْ سطح أيامه صار وجهُ ابن آدمَ؟ أم من خرابٍ بأقدامِهِ؟ هل تكون السلالِمُ تشبهُها الخطوات؟ وأين الوصولُ؟

لماذا يسدُّ الزمانَ على البعضِ بعضٌ صناديقُ: تُحشر فيها الثيابُ، وتُطوى الذيولُ؟

ما لِمَن يبعثون لأبناءِ أعمامهم أنَّهم حَجَرٌ لخواتمهم:

كلُّكم حَجَرٌ «يا رسولُ»؟

ما لأظهرِكُم: عتباتٍ تقومُ وتجلسُ؟ ما لأياديكُمُ تتثلّم عند التحيةِ؟ ما لحذافيرِ أيامكم لا تميلُ؟.

كلَّ وقتٍ إذا بأخٍ مطفئٍ كي ينامَ جوارحَ إخوانِهِ، ويقول: «الحياة سريرٌ على الماءِ ليست مزيجَ رجالٍ معثَّرةٍ بنساءٍ تُقيلُ..».

و أن الحياةَ «التكاثُرُ، حتى إذا كنتَ تبسِمُ في وجه إبنكَ بسمةَ عبدٍ لآخرَ، حتى إذا كان قلبُكَ أوديةً، والقفا، والحجولُ».

(على حين إخوانُهُ: كلُّ شخصٍ يَسيح، من الجُرفِ للجُرفِ، لكنَّه ليسَ نهراً؛ وأطفالهم بِرَكٌ يسقطون بها ويقومون.. لا تعبُ، لا ذهولُ).

(إذا كان بعضٌ يمدّونَ أرجلَهم في الجداولِ، ثمَّ يهيمونَ، فالقصدُ: أنَّهُمُ منذ أن ولدوا لم يسيلوا).

وإذ يتلفَّتُ معنى القصيدة، مختلفاً بين شرحٍ وآخر، يَفْضُلُ ذاك الكلامُ الذي ليس يُفهم، تُملأ منه سطورٌ تهيم على الطرقاتِ:تسمى الضحايا من العربيَّات والعربيِّين، من يغسلون ثيابهمُ في المنى، ويشرُّونها في المنيّات، في حين أبوابهم ومنازلهم دأبٌ (قد تخشَّب)، حتى كأن جسومَهمُ خُلقَت من قبور الذين مضوا، مزمنينَ، وأعوامهم متعشِّقةٌ في الثواني، وهم مَنْ يُراحُ بهم لمعاشر طافين مِلْءَ «الدنان الحديثةِ» مِلْءَ أوانٍ من الأكلِ والشربِ، معشرِ مشتغلينَ بحاضرهم (تحتَهُ)، كان منهم مساكِنَهم، ولُحاهُم، وكانوا..

ولكنَّهم – حين جابوا النواحيَ لم تَظهر الأرضُ منهم، ولم يكبر العامُ، ما حملتهم، طوالَ حياتِهُمُ جمرةٌ، أو شذى جمرةٍ، أو دخانُ.

كلَّما مرَّ داخلهم عَرَبٌ يحملون الزهورَ

أشاحوا،

فإذا وجدوا في الأزقة ريحاً تحاربهم

خفَّفوا وألانوا.

والضحايا يجيئون يمضون: كلٌّ يعيش بأحلامِهِ طُرُقاً

زال عنها المكانُ.

ومن خَرَزِ الحزنِ واليأس، مختلِطاً معه خَرَزُ الناس، منتشراً كلُّهُ في الأزقةِ، حتى تُخُيِّلَت النكباتُ شخوصاً تسيرُ، وكادَ الذي ليس يهرب يهربُ، حتى تراشقَ أهلُ الذهاب بأهل الإياب، وصار لفكرةِ أن يأملَ المرءُ دفترُ موتى وجرحى، وصارت قشورُ الموانئ وجوهَ الكثيرين.. من بين ذلك تَخرج هذي العباراتُ: «تأمل» أنَّ البقاءَ – وإن قيل «أعشى» – يرى نفسه في الأقلِ، وأنَّ من الأرض ما ليس يُعشبه غيرُ نظرة حريّةٍ. إن هذي العبارات أكثرُها من أمانٍ لدى العربيّات والعربيينَ، يمشي بأخبارها ماءُ أنهار آسيا وأفريقيا، وعلى الجانبين أناسٌ يلمُّونها: يتقدَّمُهم برواحلِهِ العربيُّ القديمُ، وأطفالُ «زيدٍ» و«عمروٍ»، وحِمْلُ البلاغةِ والنحوِ، واللغةِ العربيَّةِ، حتى كأنَّ التراثَ الذي في المتاع تراثُ تَمنٍّ، لكثرةِ ما دهستهم عوائلهم في الممرَّات.. من قتلةِ الأخ للأخِ، ثمَّ من الأخ للأخِ.. كان التراثُ تلفُّتَهمُ في الحروب وفي السلمِ، تلقاهُمُ أين عاشوا يخيطون في سنةٍ شقَّها غيرُهُمْ، ويجالسُ واحدُهم عصرَهُ مبتلىً بالتغرِّب فيه؛ وجيرانُهُ، دائماً، كتُبٌ تترنَّح في الطرقاتِ، وتسأل عن شارحٍ: وهو يخبرهم

أنَّهم لا دخانَ سجائرَ فيهم، بل الوقتُ يُحرقُ والرغباتُ،
ويلقونه، دائماً في الرفوفِ، ومن بعدُ يُنسى.

ويظهر آخرُ، يقصد «كيف

التحضّر فارَ ببعض القدور، وحار بأخرى»، ويخبرهم أنَّ
«ما يُولِد المرءَ ليسَ الكتابةَ، لكن مجالَ الكتابة»، يقصد
«ليس القدامى محابرَ، لكن حياةَ محابرَ: أن يترجرجَ داخلَ
جوفِكَ مستقبلٌ دائماً، وترى غُرَفَ الجسمِ وهي القديمةُ
أحدثَ» ثم يردد «خيلُ القدامى أنا، في اغترابِ الجبالِ
بصحبةِ وديانِها،
أو أنا في الجبالِ..
بصحبة مستشفياتٍ «لمرضى العصور»، لمرضى الذي هو
آتٍ، وليس النهاراتُ فيها سوى خِرَقٍ، والليالي،
يعيش بها أكثر الناس عيشَ رماحٍ تفتش عن ذاتها في نبالِ..
وإذا كلّ شخصٍ بهم: ينقضي العمرُ، وهو جوابٌ: يكون
ويمشي على الأرض، دون سؤالِ».

.. بهذي العباراتِ، غير التي فُقدتْ، يتداولُ شارحُ هذي القصيدة أخبارَها، وهي عن رُحَّلٍ تتحدَّث، عمَّن يقضّي الحياةَ على بغلةِ الزمنِ. الشارحُ اصطدمتْ نفسُهُ بنفوسٍ رحىً، وجسومٍ من الحَبّ، تكشفها اللغةُ العربيةُ، طافيةً في وجوه وأيدي أناسٍ: مرايا: يلاحِظ فيها الغريبُ تشابُهَ موضعهِ في الرمالِ، بموضعه وَسَط الأهلِ.

لا شيءَ في شُرَفٍ ومناضدَ حوليَ غيرُ تذكّر زيدٍ وعمروٍ، أنا زيدُ مَنْ كان عَمْراً، وعمروٌ. يكون الذي يتشابه بيني وبعضِ الأزقّة ليسَ عذابَ «المحلاّتِ»، لكنَّ آثارَ مَنْ رحلوا، والذي يتجمَّع في جانبيَّ: متاحفُ آلامهم.. حيث حتى نفوسُهمُ جسديَّهْ!

أينما وُجدوا فُقدوا،

شاغلينَ أذى الناس، أجفانُهم وطنُ لا يُقيمون فيه،

(لأنَّهمُ أهلُ إغضاءةٍ دائميَّهْ).

ولـو جـاز بي الشـرحُ أن أتـداول أخبـارَهم، لهمسـتُ لقومي الذين أعاصِرُهم: «إنكـم قد وُلِدْتم، فطوفوا بأكثرِ ما تحلمون،

وسيروا على الأرضِ قطعةَ أفقٍ شهيّهْ.

وعيشوا عوائِلِكُم ما مشت بخرابِ الزمان عليكم،

وموتوا لها سلَّةً

وهُويَّهْ.

كلُّنا في انسداد الفصول «سَويَّهْ»

في هروب المكان «سَويَّهْ»..

حيث إنسانُ كوكبنا واحدٌ،

غير أنَّ لكلٍّ

تجاربَ داخلَهُ

لقياسِ الوجودِ المعذَّبِ،

وهي التي عندنا

عربيَّهْ.».

إلى الأمام

كوني

في المنعطف

الذي

يعلم فيه العالَم

إنه

قد نُسي.

إحملي البلدانَ المفجوعةَ

بذلك،

وعلّقيها

على

مدخل العام

الجديد؛

عند

أباريقَ تنتظر

من يكسّر

لا

من يملأ.

كوني في المنعطف

الذي

يعلم فيه العالم

إنه قد نُسي.

إحملي البلدانَ المفجوعةَ بذلك

وعلِّقيها

على

مدخل العالَم الجديد؛

عند أباريقَ تنتظر

من يكسّر

لا من يملأ.

كوني في المنعطف الذي

يعلم فيه العالم

إنه كوني في المنعطف الذي

كوني في المنعطف الذي يعلم فيه العالم إنه قد نُسي. إحملي البلدانَ المفجوعةَ بذلك، وعلِّقيها على مدخل العام الجديد؛ عند أباريقَ تنتظر من يكسّر لا من يملأ. كوني في المنعطف الذي يعلم فيه العالم إنه قد نُسي إحملي البلدانَ المفجوعةَ بذلك وعلِّقيها على مدخل العام الجديد عند أباريقَ كوني في المنعطف كوني، كوني في المنعطف إنه قد نُسي. إحملي البلدانَ المفجوعةَ على مدخل العام الجديد عند أباريقَ من يكسّر لا من يملأ لا من يملأ احملي البلدانَ المفجوعةَ إنه قد نُسي وعلِّقيها عند أباريقَ تنتظر على مدخل العام الجديد كوني من يكسّر لا من يملأ في المنعطف الذي يعلم فيه العالم إنه قد نُسي قد نُسي قد نُسي قد نُسي.

أعمل حارساً جنوب العاصمة

«الاستكانُ»

يتعذّب

في المقهى،

والرجلُ

تحت المطر،

والمرأةُ

على السرير.

***

غير أن الرجلَ

إلى الحرب،

والمرأةَ

تزوجت،

وهو

لمّا يَزَلْ.

***

وكما تختنق

في الجبهةِ

أدواتُ الطعام..

فهي

كذلك

في مطبخ

العاشقة.

***

.. والرجلُ «تَدخَّنَ»،

والمرأةُ...

***

– هذا

ما فَضُلَ

من قصيدةٍ

أضَعْتُها

أيها القارئ.

كان

في منعطفاتها

يُدفن من يقضي

بسبب بُعْدِهِ،

وبالتحديد

عند «أفعالها

الماضية».

كنت ألتقيها

في ملامح البشر

المفارَقين،

من الذين يَغْرَقون

بين الغرفةِ

والغرفة،

وحتى يَطْرُقَ

صاحبُ البريد

يكونون

ألقاهم الطمي،

بجانب الستائر.

ثم

حاولت

أن أعيد الكتابةَ،

وفي

كلِّ مرةٍ

كان

يذهب الأصدقاء

وتبقى الكلمات

التالفة؛

وحينئذٍ

أفتح النافذةَ

وأكتفي

بأن أرقبَ الفجر

يأتي

على قطار

البصرةِ.

وداخل قطار

البصرةِ:

مترْبَةٌ

رغباتُ السنة،

وأيدي

وأرجلُ مغرَمين

لا يَصِلون.

.. كانت

تجيء

وتروح.

مني

إلى الماضي.

وبين أن أغفوَ

أو أستمر –

أَهِمُّ

بمن سيكملها

بعدي..

يتعثرُ

بها

في أهلِهِ،

ثم تخرجه

يتحسس المصاطبَ

والمحطات،

حتى يرجِعَ

وقد انزاح جفنُهُ

من مكانه.

وأحياناً

أجلسُ

بباب بيتي،

وأذهبُ

إلى غير عصرٍ،

أتفطَّرُ

في لوحاتهِ..

لعلّي

أشارك من ينظر

أن يقول

«ومن سيبقى؟»،

أو

لعلَّ سدوداً

تنفجر،

وتبكي،

حين أرى

في قيعانها

عظامَ البشرِ

وأظافيرَهم...

- بَيْدَ إنّي كنتُ

أصطدمُ

بعباراتي نفسِها

في رسائل غيري،

تكهلُ

في الصناديق،

وتُنسى.

* *

فإذا القصيدةُ الأَثَرُ،

وزهرُ الطُرُق،

والكلام

الكلامُ بصمتٍ،

وجسمُ الزمن.

كلُّ ما يجرفه المارّة.

وإذا الوقتُ

لا يُخلي مكاناً

لقبرٍ

يستخدمه المرء

في حياته،

طالما يَصعُبُ

تَفَهُّمُ الزحام،

أو الشرفةِ،

أو اللغة.

وطالما تتسرَّب الفصول

من الشؤون

الحميمةِ،

وأمراض

الفراق.

أخيراً..

يكتب المؤرخون

وينشرون..

بينما يتشعبُ الندامى

في عمق

عدم النوم،

متَّبِعِين

في دخان السجائرِ

أثرَ فكرةٍ

عن الأشياءِ

التي

توشك

ولا

تحدث.

الحياة
ثانيةً

I

-١-

النساء من الطمي، تخرج من نومها وهي تسأل كيف يكون الذي فيه ماء المحيطات؟. بينا تنام ظلال الرجال على الأرض ليس لها أحدٌ. وتُفِيق الكتابةُ مكشوفةً في المقابر. في حين من ظلَّ: كان يخاطب أسرته أن تئنَّ له وهو حيٌّ، وكان يقول: أنا سيدٌ هل أنا نحن؟.

أسيرُ

خلالَ الذي ظلَّ.

عند الزقاق المؤدي إلى البيت تخرج جارة بيتي أمامي فأذكر

جارةَ بيتي التي هي قبل المعارك والحرب،

يحرجني أنني عابرٌ قرب قربي لها،

وهي تبدو كفكرة شكٍ أتت فجأةً،

وأنا من بعيد كمن يتشكل،

أو من يرى في الخرائب عمقَ يديه المغضَّن،

أو من يطوف به صبية يمرحون،

وقد ضاع آباؤهم.

-٢-

رعشاتُ الخراب التي في النساء، الرجال..

وليس الخرابَ.

فراغُ الخراب المحيطُ بهم ساعةَ الصبح،

بُعْدُ الخراب وقد عكس العمقَ، وجهُ الخراب، يداه،

مناشفه في المغاسل، ماء الخراب، الطواحينُ في الحلم،

طَحْنُ الخراب، تنشّقُه، غربة الأثر الحرب، الضائعون، القبور الجديدة وهي تزيل القديمة-.. فكرت في السيد الحيِّ حين يمر به السيدُ الميتُ..

الآنَ أَسألُ: لو أن نيسانَ كانونُ- هل إنَّ كانونَ نيسانُ؟ أسأل عن فكرة العمر حين تقلِّبها في الجريدة وحدك في شرفةٍ بعد حرب السنين الطويلة.. هل إنَّ «وحدك» يعرفها غيرك؟.. الأرضُ: أنتَ الذي هي؟ أم هي شكُّكَ في ملجأٍ في الحدود؟

وهل إنَّ آذارَ آيارُ.. أم إنَّ آيارَ آذارُ..؟. أسأل عن رجلٍ مات قبل قليلٍ.. أفكّر في رعشات الخراب التي في النساء، الرجال،

وليس الخراب.

-٤-

وعن أي معنى ستكشِف

أرضٌ يحارب من أجلها الناس ثم يُوارَوْن فيها؟

* *

أ إنَّ الترابَ الأخيرَ يُقَدَّسُ أكثر؟

* *

ماذا يقول الذي يتمايل في آخر الليل سكرانَ:

هل تستريح أراجيح

مشدودةٌ

لأراجيح أخرى؟.

-٥-

دخولاً خروجاً ترافقني لحظةُ القصف والمدفعية،

تلزمني في الفراش كحُمّى

وتجرفني في تصوّر موتي

أُراق

وأبدو إناءً لمن لم يكن قد رآنيَ من قبلُ،

أُشرف أن أتهدم، يهدمني الشك،

يُخرج عقلي خيولاً

ويزجر،

يختلُّ من حوله كلُّ شيء؛
فأضحك..

«كيف أغطي الفضاءَ بِهُذْبِي؟»،
أطالع طين الملاجئ في حائط الليل
مستلقياً في سريري،
«هــل انتهــت الحــرب؟»، «هــل رجــع الجنــد منتبهــين لأوجههم في الحلاقة؟»، «أين البداية؟» قبل قليل صعدت إلى السطح، شاهدتُ بُعدي خلال الأزقة والناس: أين البداية؟، من أين يبدأ من يتذكر؟،
هل عاودت خلقيَ الخَطَراتُ التي في الخنادق؟
هل متُّ؟ أين جُرحتُ؟
وما هذه الكدمات المشعة في جوهري؟

- كان نِصفُ الترابِ يُعاشُ ليُمشى..
بينما أتعثر بالميتيين
تعثَّرَ شهرٍ بأيامه.

-٦-

مثلاً:

كان في الكرخ أحياء مروا، وكان الدخانُ، فكانوا يشكُّون

أين هُمُ الآن، هل همُ أحياءُ؟

في طرف دجلةَ؟ أم في ضَياعٍ من الطائرات؟

وللآن أذكر أصواتهم

بسؤالاتيَ الحائرَةْ؛

وأفكر هل أن هذي الحروبَ زهورٌ

لأن نباتاتنا شاغرَةْ؟

-٧-

عند شكي ظللت أظهر،

في أعماق برقٍ،

من لا مكانٍ أُزارُ.

بيتيَ الموتُ،

مدفني في الإعادات،

رفاتي

يضيق عنه النهارُ.

«كيف تُبقي الغاباتُ أسرارَها

بين شُخوصٍ

قد حل فيهم دمارُ؟.»

- «لا عجيبُ أن الجرار عطاشى

بل عجيبٌ أنّ العطاشى جرارُ».

II

-١-

ثم كانت حياة الذين أعاصرهم:

بعضهم حينما يشرح العمرَ تحرجه فكرة العمر،

ثم إذا علل الحلم بالنوم

حار بأضغاثِهِ.

واجداً غير ذلك «من حكمة الحرب»..

(كانت توابيتُ تسعى أمام الذين أعاصرهم.

في جوار الأسرّة،

تحت الوسائد،

في الظن، في الليل

في كلِّ ضِحكٍ.).

.. ومن حيث إني أقيم ببغداد،

كنت أطالع نصفينِ منها بمرآة سيارةٍ تعبر الجسر،

لست على أي جفنٍ أعوّد عيني،

ولكنـني الآن أطبـق جفنـين مـا بـين حـيٍّ وآخـرَ، والنـاسُ صرعى،

أكون طريح الشفاء الذي في الكلام،

الذي في الإشارات؛

لا أتصفّى،   ولا أركدُ..

كلما خِطتُ جرفاً يحدد روحي تفتّقَ جرفٌ،

ومن حوله ماؤه يشردُ.

-٢-

(على أزقة بغدادْ..

تغفو النهارات، والناس يلهجون: يُعِدّونَ ما تبقى، وما بادْ.

أقول لابنة جاري -مشكِّكاً- إنّ هذا القَرن: اشتغالُ جدارٍ ببابهِ؛

فمتى يدنو من مشارف بغدادْ؟

تقول: «نَمْ» — وأنا أستخطي خروجي من التاريخِ؛

الفرات حصاةٌ في كليتي، وخزامى مدغومةٌ في اللهاةْ.

أقول لابنة جاري: الإشكالُ: إنّ الـ مضى آتْ —

تبكي، تحدثني عن خسارة: لمضيِّ الأعوام تحت البكاءاتْ.

أقول عنها «حَرَامٌ»،

تقول «أنت حَراماتْ».

في حين أخبرها أني بين أشياء تبقى:

الأضداد صارت بيوتاً، وضيفتني،

ولفتني في تلافيف بغدادْ..

أخبارَ موتٍ

وميلادْ.).

III

وإذن – في جـوار الطلـول أراجـع بيـتي، لأجعـل قرميده يتراوح بين الخراب وأسراره. وتراني يصدقني الجار أنّا من الشرق، يفهم أنَ صحابي سروجٌ مكسرةٌ، وكتابٌ من البُعد: تدنو الكتابة منه فتذهل: أن أيُّ جنسٍ من الوقت يُسبى؟، وأيَّ حُزُوزٍ تصير الإقامةُ؟. إنَ النساء السجاجيدَ: عند رجالٍ سجاجيدَ، حول تواريخ تصعد تنزل... أَيُعاش إلى فَرَضِ العيش؟، هل ينتهي المرء أفضيةً؟، أم سلا لمَ؟، أم لغةً يستوي الجفن فيها مع الطاق؟. هل ينبغي أن تُرى قامةٌ تدخل السنوات من الخلف كي تتحرر؟؛ هل ينبغي للفضاء المغضّن في سُحنةٍ حزّزتها الملاجئُ أن يتبسّم؟، كيف يعيشُ الذي ظلّ والغائبونَ الأسرَّة؟..

عميقاً.. عميقاً

ألاحظ كيف ترود الفصولُ أزقّةَ بغدادَ، في حينَ كلٌّ سخامٌ. أفكّر في برجِ إيفلَ، بالناس في وسط مكةَ، في بيت بودلير. ثمّ أفكّر عند الزقاق المهدَّم: من أين أدخل بيتي وأجلس...

غيِّروا المنازل

فإذا اصطدمتَ

يوماً

بجسمكَ

فإنكَ

لن تطيق الراحة.

بل إن

نمتَ

ستترك أشياءَ

من الجبال

تتردد

في جوفِهِ.

وسيخرج أصلُكَ

من بين حاجبَيْكَ

ويتشرد،

في الأزقةِ،

لدى كلّ مدينةٍ،

على

أي ساحلٍ،

بهذا الكوكب.

ولن يتوقف إلا

بشجرٍ يتكسر

مع الحرية،

في تبادل أحشاءٍ

بين البشر

والنبات،

عند

تقلب الرجل

في فراشِهِ،

والمرأةِ

في جذورها.

فهل الذي يُقْبل هنا

يقبل بوجهه؟.

دع الآن، ذلك عنك

و لأحدثْكَ

عن زجاج الغُرَف

أنه

يعكس الأيام

الفوقانيةَ،

التي

يجّر الرجل فيها

ضوءه الميت،

ويكاد

تسبقه هُوّةٌ

إلى حيث يجلس

أو

ينام.

فإذا

يُسأل «لماذا يتلمس جُدرانَ دارِهِ

صباح مساء»،

يجيب

أنه

يرى فيها

بشراً.

.. وأَحَدُهُم يرمم مركبَه

ويغنّي:

«ماذا لو لم يكن بحرٌ؟»،

«أين تغرق السفن إذن؟»،

«وأين تذهب الجهات؟

ويسكن الهرب؟»،

وآخرُ يضيف غُرفاً لمنزله

ويهمس:

«الندمُ

على المستقبل

يضاعف الأولاد».

وأنت

لم تَرَ من قبلُ

أنجماً تُكسَّر

وتُعَبَّأُ،

في

عُلَبٍ سود.

ولم تَرَ يداً تحول

إلى سائلٍ

يترجرج،

ولا جيوشاً

تتصبب طوال العام

من جبهةٍ

تفكّر

بالحرية.

أما الأرض

والبحار

فليست واسعةً، أيها الصديق،

إنها

أخبارٌ حُرِّفت،

بالنسبة لعينٍ

ترى

وتحلم.

مرّةً واحدة

.. لا أسودَ و لا أبيض.. كلما قلتُ «هذا أنا» ضَحِكَتْ ذاتي وضَحِكْتُ. وكلما قلتُ «عندي طفولةٌ» ضحِكَ مني الأطفال في المحلات. وليس عندي فَضْلَةٌ من سَنَةٍ آخذ فيها مكاناً لجذوتي.. ناري مجروحةُ الدفءِ.. نارٌ ترحلُ في فحمها و تعود. وأكثر من أمس: أنقل اليومَ رغبةَ بقائي لمن حولي، بينما أكبرُ وأصغر في الأزقة، أمرُّ بالناسِ مرور ذهابٍ بتكراره، ويسبقني أين مكثتُ مجالٌ لغيري.. فأنا أحيا في شِبْهِ مئة شيءٍ كُلُّها أنا.. هذا ما وددتُ كتابتَهُ، الآن. لا أقدر

غير أن أتذكر ذلك، وأنسى. ولا أقدر غير أن آكلَ وأشربَ مع أهلي.. حتى نشبعَ من ضحك الواحد من الآخر، وتحت جَفْنَيْ كُلٍّ منا حكّةٌ مؤلمةٌ، من شدةِ الأمل، سميناها «الحياة»، وسمّاها غيرنا «كثرةُ الحاجة إلى الماضي». وأنا، على الرغم من ذلك، أشتغل بأصدقائي وأهلي، مجروحاً بهم، أعبر من الليلة إلى الليلةِ: أدفنُ أشعة اليأسِ التي بينهما، ومعي رغبتي بالنوم.. على أن لا أفيق.. لأنني كلما أَفَقْتُ على أحدٍ لم أجده. حتى ظللتُ لا أقدرُ غيرَ أن آكُلَ وأشربَ مع أهلي، وبين كلّ اثنين منا وطنٌ من الوحشة، وقنطرةُ غيابٍ لو على نهرٍ لَيَئِسَ النهرُ: نسميها «الحياة»، وغيرُنا يسميها «خَجَلُ الأخ نحو أخيه» – لا من قلّةِ الحيلةِ، لكن من أن يهربَ وينسى.

لا أسودَ ولا أبيضَ... يجدني كلُّ ضابطٍ في شكوكِ جنودِهِ،

في حين يجدونني في شهقات أوراق إجازاتهم، إذ يؤوبون، وإذ يطمر الواحد منهم ماضيَ حياتِهِ بزوجةٍ وأطفال. أقول: وكل بَنّاءٍ يجدني في الجدار الضائعِ في نفسه جدارٌ أخر. ويلقاني كلُّ حامل ورقٍ كثيرٍ أمامَ العالمِ: في تحيُّرِهِ. فإذا عَبَّر، مرةً عن نفسِهِ، فإنَّه - كأنْ لم يَدْرِ - سيحفر بعباراتِهِ قصيدتي هذه، ويوسعها؛ حيث لن أُمْنَحَ الفرصة، ثانيةً، لامحو منها أو أضيف.. ذلك أن ما لا يذكره الحظ تنساه الرغبة، وإنني خضت حياتي كلها بين جانبَيْ جسمي، وكان الليلُ والنهارُ نَظْرَتَيْنِ: أمرق فيهما على الحاضر، بينما ألتقي بنفسي بين الشهر والشهر لقائي بأحد أقاربي، ذاهباً وجائياً داخل مكتبتي.. أفهم كيف العصور تضيق وتتسع على أمثالي، مقتفياً في غرفتي أثري وهو يبتعد، مقابلَ بقائي الذي يقابلني ويسأل، ومعي

الكلماتُ، وأنصافُ القصائد، في أُسْرة رغباتٍ، وخلفَ البابِ: الشارعُ: وكلُّ أثرٍ فيه فهو لامرأةٍ مفقودةٍ من رجلٍ، وخلف الرجل روحُهُ، وأمامَه كتُبُهُ، وهو الجالسُ الساعةَ يتأمل: أنَّه لم يرَ دفتراً في مكان إلا وقِلَّةُ زمانٍ معَهُ، وكيفما تحرَّكَ بكلماته سئمَ العالم، وكلما ائتزر بأُناسٍ من عصرِهِ وجدهم أرقَّ وأوهى... ويكتب: إنه، مُدَّةَ عمرِهِ، كان ذهابُهُ: قدمٌ في ماضٍ وأخرى في رغبة... وإنَّ، في كلِّ يومٍ، جفناً آخرَ، أضخمَ من الليل، ينطبق وينسى. وبين اللحظةِ واللحظةِ امرأةٌ مفقودةٌ من رجلٍ جالسٍ إلى الطاولة الآن... هذا بعضُ الذي وددتُ تذكُّرَهُ.. أفقدُ عمقي، ولا اقدِرُ غيرَ أن أرغبَ وأنسى، ولا أقدِرُ غيرَ أن آكُلَ وأشربَ مع أهلي: حتى نشبعَ من ضحك الواحد من الآخر، حيث ما لا يذكره الحظُّ تنساه الرغبةُ. وحيث تتخرَّبُ الفتوةُ والعِظامُ على الأسطرِ.. وتكون النظرةُ إلى الداخل آخرَ كلمة.

وبكلمتين اثنتين:

«لم أَرَ شبابي».

اليومَ.. وغداً

لا تَحْجِبْكُم

بَحَّةُ أصواتكم

هذه.

إنّ

مستشفى حب البقاء

مزدحمٌ.

وفي أعماقي

وأعماقِ كل منكم

شبكةُ هواجس

تكفي

لتُصنَعَ طائرةٌ

تقلُّ القَرَّائين

إلى الرفوف

البعيدة.

تعالوا

وأنضجوا الحشائش التي

تحسونها في مفاصلكم

حين تَكرهون.

فقد تسقط أكتافكم

من حولكم

وأنتم منشغلون

بالنظر

من ثقوب الأبواب.

حتى الآن

لا أعرف

أن أُخْلِيَ

في الخَطَرَات

موطِىءَ قدمٍ

لفكرة الانتظار

على كرسيّ

أمام المحيط؛

ذلك أن الشفقة

من خارج العالم

تثقب العالم.

فهل رأيتم سيداً

– مثلاً–

يتعثر بعبده؟،

أم هل رأيتم

محبةً

ضائعةً

تستحيل

دوداً؟

أم

إنني الوحيد

بينكم

المعبر

عن ضياع مُلْكه؟.

وإذن

إذا

أحببتم

عداوةَ الأمل

وانكسرت أوانيكم

في الواقع

واشتبهتم أفي هلعٍ أنتم....

فإنكم

- تعالوا

وغطسوا أعماقكم

في المغاسل

لتعلموا

أيَّ غرقٍ

أنتم،

بل
أيَّ عُملة اصفرارٍ عند باعةٍ في لوحةٍ
ساعةَ أن يقال «هذه امرأةٌ»
منكم،
أو
«هذا رجلٌ».

أتركوا صوركم على النوافذ،

أتركوها

وتعالوا.

.. ثُم لا أحد

.. ولكثرة تقلبي

في النوم،

كان طعامُ وجودي

في الثلاجة،

وصدى شخيري في الهواء

يبعد عني أصدقائي ؛

وكان بيتي يتغيّر

بين كلّ حركتين

على السرير،

وهكذا قضيتُ حياتي..

أنام،

وأتقلب،

وأشخر..

حتى غدوتُ

غرفةَ النوم

التي

في «الطابق الثاني».

وكانت

على درجات السُلَّم

أوعيةُ الندم الكبيرة –

لأنني

ضمَّنتُ حياتي الشراشفَ

وروحَ القطن:

بغير فجرٍ

يوقظ فيَّ

حاسَّةَ الصداقة،

أو انتباهةٍ

تشبهُ الإنسان.

وكانت تلمع

في حافة السرير

أشياءُ بعيدةٌ

فقدتها،

ثم فقدتها،

مرتين.

وكان أكثرُ شيئين يحزنانني في ذلك شيئين:

الشمس

التي لا تُلمس،

والشمس

التي لا تُلمس.

مثلاً..

ليس في أن تولَد،

أو أن تتعذب بأغصانك،

لأنك شجرة وحيدة.

أو أن تحب،

أو تكره.

وليس في أن تكون مدفأتُكَ

ساعةَ الشتاء

المكسورة.

أو أن تُلاشيك

ضحكتُك

في ممر.

أو أن تتلاشى

بالمعنى المعاكس

لاسمك.

ليس في هذه الكلماتِ: توجَدُ الكلماتُ

التي

تريد تهدئَتَها

لتُكْتَب.

.. إنّما

في بَحَّةٍ

غير مجسَّمةٍ

يكونها المطر

موشكاً

لا يسقط..

بكاءُ الحرية المهجورة.

حين تتشمم الناسَ

في طعامك،

وتبلغ أرواحُهم ثيابَك،

ثم

لا تقدر

أن تسأل

أو أن تجيب.

عنهُ، وعَن أهلِهِ

I

كان

قد مات

فاحتوته البذورُ..

..هكذا موتُهُ

فكيف النشورُ؟

كيف يقفرُّ عُمْقُهُ

والعباراتُ سحابٌ

من فوقِهِ،

وطيورُ؟

حابلٌ

نابلٌ،

مدارٌ

مَدُورُ.

عاش صُحْفاً تُطْوى، وحبراً يمورُ.

وهو، اليومَ، مقبلٌ في رذاذٍ

من تواريخَ لا تُرى، لا تصيرُ.

جاء يَسْتخشنُ الفصول،

ويروي عن سلالٍ: محصولُها قمطريرُ،

مازجاً شِعرَهُ بجرحى سؤالٍ عربيٍّ،

حيث الجواب ضريرُ،

ويرى في مياه دجلةَ: تطفو

ذكرياتُ الذين لُمّوا

وديروا،

– جيلَ عثْرات حالمٍ، قد أفاقوا من كتابٍ

وثوبهم محبورُ

..جاءَ يختارهم مجالَ جِمالٍ ملءَ عينينِ

ملؤها تحييرُ

ضاعناً في شؤون عصرٍ جديدٍ،

وقديمٌ عذابُهُ،

ومريرُ،

حاملاً شمسَهُ القليلةَ

والناسُ وأحلامهم شتاءٌ كثيرُ.

أصلهُ نارٌ،

والحياة فروعٌ منه،

والموت بين عينيهِ نورُ.

..جاء دمعاً

وليس يبكي،

ولكنَّ نساءً تحت الجفون

تسيرُ.

..قيلَ «واعتادَ أن يُجيرَ ويُسلي» – علمتــه الحــروب كيــف يُجيرُ.

II

ذا أنا ذاك.

يأخذ القوم وقتي،

ومصيري أوقات من لم يصيروا.

عاريَ الأرض في خطاهم،

وجلبابي لبابٌ من همهم،

وقشورُ.

عشتُ شخصاً بغير شخصٍ،

وشَكّاً

من رمالٍ،

وكوكباً لا يدورُ:

تارةً تخزن السـهولُ هوائي،

وبأخرى تضيق حتى الصدورُ

وبأخرى مستقبلي فوق جسرٍ:

لا قَبولٌ تسعى به، لا دَبورُ

فترى الذكريات رمحاً

عَذاباً

بل يعاني من نفسهِ التذكيرُ..

.. عن بني الأهل

لم يُتموّا كلاما حيث ساروا،

بل في الرحى حيث سِيروا،

.. عن نساءٍ قَضَتْ: تدور، وتَهمي؛

ورجالٍ قضوا ولم يستديروا،

.. وسنينٍ مطلّقاتٍ مراراً، وبنوها الشحوب والديجورُ

وأراضٍ تختلُّ تحت خُطَى العابر،

ترتاب،– زعزعتها الدهورُ

وسواقٍ لم يُنقل النهرُ فيها،

بل مياهٌ مكسورةٌ،

وجسورُ..

III

كيف أرثي أشياء قومي؟
إذا رحتُ سؤالاً فإنَ ردّي القبورُ !

– أنا أرثي،
والصمتُ بعضُ كلامي،
والإشارات رِقّيَ المنشورُ..

خائضاً عصري: بين «قيسٍ» و «ليلى»،
وجفوني «فرزدقٌ» و «جريرُ».
أنا قفلُ الأحلام،
بابُ التجاريب،
فؤادي تقتاتُ منه النسورُ،
حاملُ الليل في البراري..
حكيمٌ،
وبعمقي من السُدَى أُحفورُ:
أتحرّى البلادَ وهي اغترابي،
آتياً في الورودِ، وهو الصدورُ..
علمتني الحروب كيف يسيرُ الصبحُ ليلاً،
ويُستضاعُ الخبيرُ:
بين جسمٍ بَحرٍ وروحٍ ضَياعٍ،
– كم بيوتٍ تعيشُ فيها قصورُ..

(كيف يرتاح من يعيش غريقاً؟، ولنسيانِهِ فراشٌ وثيرُ؟).

- علمتني الحروب

أن أقرأ الشعر إلى الريح:

الغائبون حُضورُ.

IV

بيدي زهرةٌ،

إلى الحرب أُهديها،

وعندي من الهدايا كثيرُ..

سقفُ بيتٍ، وبابُهُ،

والأحاديثُ،

وقِدْرٌ

بالذكريات يفورُ،

وقناديلُ جَمّةٌ،   ووعاءٌ من رماد القتلى،

وفيه الزهورُ،

ودروبٌ تُخْطى وتُنْسى

لجيلٍ

عربيٍّ،

طريحِ تيهٍ،

يضورُ

ناقلينَ الدُنيا بخيل المنيّات،   لحُلْمٍ يعدو بهم، ويُغِيرُ

– حيث ما يبتغون بين مطاويهم، وما يَشْكُون:

الصدى والأثيرُ

كانَ كلُّ التاريخِ ضَيقاً عليهم،

وحيارى كِلْماتُهم، والسطورُ:

كلَّ يومٍ حلْمٌ، سؤالٌ جوابٌ: بيتُهُ الأرض، موتُهُ إكسيرُ.

عوَّدتهم أحلامهم أن يَرقّوا لزحامِ الأيام، وهي هجيرُ

غير أنّ الطيور فيهم تَربّت كلُّ أعضائها،

وهم لم يطيروا

قُصِفوا من حيث استراحوا فراحوا،

ولأحلامهم خيولٌ وسورُ،

وتخفَّت أرواحُهم في الشظايا،

أن ستعتادُ حالها،

وتسيرُ.

V

بيدي زهرةٌ،

إلى الحرب أُهديها،

وعندي من الهدايا كثيرُ..

من جروحٍ مع المهودِ، صِعابٍ،

كلُّ طفلٍ ينامُ

جرحٌ عسيرُ

يتداواها بيننا العربيّون القدامى،

وَبَرْؤهُم يستثيرُ:

أُتراها مكرورةً: المضامون ونهرٌ، والميتونَ وصورُ؟

أعجيبٌ تنفّراتُ العراقيّين من عالَمٍ لجاماً يصيرُ؟

هل عجيبٌ أن يُزدرى بحياةٍ

من وجودٍ

تُقَدُّ منه الصخورُ؟

هل عجيبٌ أن يحلمَ المرءُ بالأرضِ إذا كان قد رآها تدورُ؟

..بين حبرٍ غافٍ وحبرٍ يمورُ

كَلِماتٌ عميقةٌ، وحُفورُ

نقتنيها سطورَ عَيشٍ،

ونأوي لمعانيها: كلُّ معنى حصيرُ

ونسوّيها أَثْوُباً ونُدوباً: يَرتَديها، ويَرتَقيها الضميرُ

ونلمُّ الحياةَ من ريش نسرٍ: شقَّقَ الأُفقَ جنحُهُ المكسورُ

هكذا نحن: ألفَ عصرٍ وبيلٍ..

والمعافون نحن،

ليس العصورُ

مستديمينَ

حيثما نَتَخلّى،

ومُدارينَ

حيثما نستطيرُ

أين نمشي فنظرةٌ،وسؤالٌ:

«آهِ..أَهلَ الشعورِ: كيف الشعورُ؟»

VI

نشكرُ الحرب:

كلُّ سِلْمٍ سلامٌ

وصلاةٌ، لشُكْرِها،

وبَخورُ.

ألخرابُ الخطيرُ: جنّاتُ عدنٍ

والشظايا بناتُهنَّ الحورُ.

والخساراتُ ماؤها،

وشذاها،

والضحايا طعامها،

والقدورُ.

..فاشكروها التي استجارتْ – أُجيرَتْ..

نِعْمَ ذاكَ المجيرُ،

والمستجيرُ.

عرَّفتنا كيف التواريخُ تأتي بالمرايا

لكلِّ وجهٍ يبورُ.

وعرفنا الناسَ الذين إذا الناسُ حَشوهم في شعلةٍ: لم يُنيروا

مستريحين..

عيشَ ماءِ الأباريقِ..

حشودٌ:

لا موجةٌ،   لا خريرُ.

VII

..هكذا موتُهُ فكيفَ النشورُ

– رَهْنَ حبرٍ غافٍ بحبرٍ يمورُ

صار بُعْدَيْ قِراءَتَيْن، تراها شُرُفاتٍ: أبوابُهُ والستورُ:

ألمعاني تسيرُ بين الليالي حُسَّرَ الرَأسِ، لليالي تُشيرُ

أنَها أُتْعِبتْ، فليست تجافي عاشقاً،

أو صِباً، وليست تدورُ..

ألذي دائرٌ: رَحَى عربيٍّ،

هو، ثَمَّ، الرغيفُ،

والتنورُ.

فهرس القصائد